

## استنهاض أمة

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

التقدم والتخلف مسألة إرادة. التقدم هو رفض لواقع ذليل وتوق لواقع أفضل والتخلف هو قبول الواقع وتكاسل عن التطوع للأفضل. والتحول من التخلف إلى التقدم يحتاج إلى عزيمة Stamina وقبل كل شئ يحتاج إلى رؤية Vision وحلم بمستقبل فيه أمل. وعندما يموت الأمل تموت الأمة. لا تموت جسديا بل تموت روحيا فلا تبدع ولا تنتج فتصبح بشرا يعيشون ليأكلوا لا يأكلون ليعيشوا. لقد تقدم العلم فى العالم بسبب طموح أفراد وحلمهم وتشوقهم لما هو أفضل ولفهم أعمق للكون وطموح أرحب للحياة . والعلم هو مفتاح التقدم وهو علامة رقى الأمم . ولأن العلم يحتاج إلى صبر ومثابرة وجهد ومجاهدة فهو أولا وأخيرا يحتاج إلى العزيمة. فإذا انتفت العزيمة استحال التقدم وركنت الأمة إلى الجهل والتخلف والكسل والفقر. كان هذا هو حال معظم البلدان الإسلامية وكثير من بلدان العالم الثالث أو العالم المتخلف. لا توجد فيها ومضة فكر ولا روح وثابة ولا عزيمة دافعة ولا طموح مستعر. لقد تقدم الغرب والشرق بالإصرار على تحقيق التقدم. ولم يكن أبدا تحقيق التقدم أمرا سهلا بل معركة رهيبة وسباق شرس ومحاولة مستميتة دائما للتفوق بينما تحاول دولا عديدة للحاق بركب لا يريد أن يتوقف فى محاولة لركوب مركبة دائما تتحرك للأمام وبسرعة. وهناك من تخلف عن هذه المركبة وفتح بالقعود تحت شجرة لا أمل له فى شئ ولا حلم له فى مستقبل . يعيش لحظة بلحظة ضائع جائع يتسول لقمة العيش لا كرامة له ولا معنى لحياته . لقد خلقنا لنكدح ولنبنى . لنا رسالة فى هذه الحياة . لم نخلق عبثا أمامنا واجب نؤديه فهل نؤديه كما ينبغي ؟ لقد خلقت لنا الدنيا ولم نخلق نحن للدنيا. كلنا يؤمن بالله ويؤمن بأن الموت حق ونؤمن بالبعث والحساب حتى العلمانيين بيننا يعلمون أن هذه الدنيا لا تدوم لأحد ولا يخرج منها أحد بشئ معه. الحساب سواء بعد البعث أو حتى الحساب أثناء حياة الإنسان أو بعد مماته يقوم على تقويم أدائه وعمله خلال حياته ماذا أنجز ؟ وماذا ترك ؟ كيف أفاد الآخرين ؟ وكيف عمر الدنيا؟ وكيف نفع المجتمع ؟ يجب أن يكون هذا هو مقياس حساب الذات لكل إنسان. الملفت للنظر هو انتشار تيار دينى قوى فى معظم البلدان الإسلامية ولكنه تيار فى معظم الحالات لا يأخذ منظورا متكاملا عميقا للنهضة فى

أغلب الأحوال يركز على كثير من الأمور الأخرى الهامة ذات الطابع العام مثل الطقوس والمظهر والالتزام الشخصى بالأوامر والنواهي هذه أمور هامة ولا بد من احترامها . ولكن هذا ليس كل شيء . الجوهر المفقود أن الدين يرفض رفضا باتا هذا التخلف الذى تعانى منه معظم الدول الإسلامية . والدين يرفض رفضا باتا هذه الفرقة والتشتت الذى يفرق الجهود ولا يوحدتها . والدين يرفض رفضا باتا الفتن والصراعات . والدين يرفض رفضا باتا الشحناء والافتتال . والدين يرفض رفضا باتا التعصب والتطرف والتشدد والعنف والترويع والترهيب . جوهر الدين السماحة والصفاء مع النفس ومع الآخرين حتى لو اختلفت عقائدهم والصفاء والسلام مع الخالق . كثير يصلى ويصوم ويفصل ذلك تماما عن الأخلاق والسلوك والتعامل . كثير يسعى فى هذه الدنيا سعيا لتكديس الثروات ناسين أن هذه الثروات إنما أعطيت لهم وسيلة لنهضة الأمة ولتنفيع دور رأس المال فى نفع المجتمع وإقامة الصناعات وتشغيل الناس وحل مشكلات المجتمع . هكذا يفعلون فى الدول الرأسمالية . فالأغنياء يقيمون المستشفيات والجامعات غير الهادفة للربح Non profit ويقومون بتمويل الأبحاث العلمية . أما أغلب أغنياء المسلمين فهم يكسبون ثرواتهم فى الغرب استثمارا لها لا استفادة منها فى مجتمعاتهم لنفع الناس . فلا قامت قاعدة صناعية ولا قاعدة علمية رغم توافر ثروات هائلة فى أرضهم . وكثير من الناس يصلون ويصومون ثم يخدعون ويغشون ويظنون أن التجارة شطارة . وكثير من الناس يصلون ويصومون ولا يؤدون أعمالهم . يلعبون لعبة القط والفار مع الحكومة يبحثون عن المخارج التى يستفيدون منها خداعا ومواراة . يتقنون بالأوراق الزائفة لخداع القوانين واللف على لوائح التعاقدات . وكثير من الناس يصلون ويصومون ثم يرشون ويرتشون ويظنون أن هذا أمر عادى Part of the way . وكثير من الناس يصلون ويصومون ثم ينصبون على الأفراد والبنوك ويبطرون الحق . هكذا خرج جوهر الدنيا من المعادلة وخرج الضمير والحساب من لغة الكلام . وأصبحت القيم والمثل والمبادئ والأخلاق شيئا من الماضى يوضع أصحابه ومدعيه فى متاحف التاريخ . لهذا تخلفنا . ولهذا ازداد فقرنا كأمة . وازدادت مذلتنا . كيف يتغير ذلك كله ؟ كيف يوقن الجميع أن التدين الحقيقى هو العمل والعلم والخلق ونبذ العنف والكراهية والافتتال . كيف يوقن الجميع أننا فى مركب واحد هو مركب الوطن إذا غرقت غرقنا كلنا معها . كيف يوقن الجميع أن لهذا الوطن أعداء حتى إذا استتروا

وراء اتفاقات وبروتوكولات وأن هؤلاء لا يتمنون الخير لنا . يسرهم ما نحن فيه من ضنك وضعف . ويسوءهم إذا هممنا بالنهضة والتقدم . وأن ما نحن فيه هو وضع استقرار غير متزن قد ينفجر فى أى وقت إذا خرقت الاتفاقات . وحتما لن تخرق بأيدينا . الحل هو أنه لابد أن نتقدم ونقوى ويكون لنا ظهر من أنفسنا بالعلم وبالصناعة وبالوحدة وبالتحالفات مع بعضنا البعض . لماذا لا نمد أيدينا لبعضنا البعض؟ أرادونا متفرقين ليتمكنوا منا واحدا بعد الآخر حسب القاعدة الشهيرة فرق تسد Divide and Rule . قبل كل شىء يجب أن يقوى كل وطن أولا . لقد انتشرت مقولة بين كثير من الناس لماذا أعطى إذا كنت لا آخذ حقوقى من الوطن وآخرون يقولون أعطى على قدر فلوسهم . والغريب أن الرئيس الأمريكى الأسبق جون كيندى له رد : 'لا تفكر فيما تأخذه من وطنك وفكر فيما أنت قادر على أن تعطيه للوطن . الموظف يحاول أن يخادع نظام العمل ولوائحه ليستفيد تارة بأجازات بشهادات مرضية مزورة وتارة بمرافقة الزوج أو الزوجة خداعا باعتبار الأمر وجوبيا . تحايلات مستمرة وللأسف فإن النظام يسمح بالثغرات Loopholes المهم أن يكون الورق سليما . كل من قبل التعاقد بالعمل فى وطنه حتى لو كان الأجر قليلا فهو ملتزم دينيا وأخلاقيا بأداء عمله بإخلاص وتفان . هذا هو جوهر الدين وإن لم يكن راضيا عن هذا الأجر فليترك هذه الوظيفة لغيره وخاصة مع انتشار البطالة كما نرى . جوهر الدين يحث على الإتيقان فهل يتقن كل منا عمله ؟ لقد نادى الرئيس مبارك مرارا بأهمية التصدير فهل نصدر للعالم مثل ما نستورد ؟ هناك عجز فى ميزان المدفوعات فنحن نستورد أكثر مما نصدر . ما يمكننا أن نصدره لابد أن يكون على مستوى عال جدا من الإتيقان فنحن فى سباق مع كل المنتجين فى العالم وفيهم من لهم خبرة أكثر منا وإتيقان أعلى منا والإتيقان يرتبط بالمعرفة Knowledge والتقنية knowhow ويرتبط ذلك كله بالتعليم المستمر وبالوعى الثقافى والفكرى . ما حجم الثقافة عندنا ؟ إن موازنة طبع الكتب بكافة أشكالها ماعدا الكتب الدراسية لا تتجاوز 100 مليون جنيه بينما حجم طباعة الكتب فى أمريكا 28 بليون دولار أى بنسبة 2000 إلى واحد . هذا هو الفارق السلوكى للفرد . فالفرد عندنا لديه متسع من الوقت ليجلس على المقاهى ويستمتع بالمباريات والمسلسلات والوقت لا ثمن له ومع ذلك لا يقرأ ولا يتعلم شيئا جديدا . استنهاض الأمة يتطلب تعبئة عامة لكل القوى والمؤسسات لبناء أمة قوية مثقفة منتجة . لا يمكن أن يترك آلاف الشباب بلا عمل

ولا حلم ولا طموح ولا هدف . إذا كان تعليمهم لم يؤهلهم لسوق العمل فالعيب فى التعليم وليس فيهم أما إن كان تعليمهم كاملا ولم يعملوا فالعيب فيهم . حين نفضت الدولة يديها من توظيف الشباب فى إطار التحوّل الرأسمالى حدثت كارثة . صحيح أن البطالة المقنعة كانت عبئا على الدولة . وصحيح أن جيش الموظفين العديد العتيد مازال عبئا على الدولة فى ظروف غير حافزة للعمل أساسا فالموظف فى أمان سواء عمل أو لم يعمل سواء أتقن أم لم يتقن والحوافز والمكافآت التشجيعية تصرف للجميع فلماذا يجتهد المجد ؟ ولكن عندما يذهب فرد للعمل فى إحدى الدول العربية فإنه يعطى أفضل ما عنده لأنه يخشى إنهاء عقده . أما هنا فالأمان يوفر البيئة الطبيعية للتراخى أو للعمل بدون روح . كل ذلك يحدث لأن الدين خرج من المعادلة وأصبحت الشعارات مجرد شعارات . كيف يمكن زرع الحماس فى القلوب وشحن الهمم فى النفوس . لقد استطاع الجيش المصرى عام 1973 تحقيق انتصار عز على كل عقل يفكر بالحسابات المادية . والسبب أن همّة المصريين كانت فى السماء وأنهم بذلوا أقصى جهدهم ثم لجأوا إلى الله فمدهم بعون من عنده . وكذلك حال حزب الله وهو يقاتل جيش إسرائيل العتيد بروح قتالية عالية أربكت جنود إسرائيل وملأت قلوبهم رعبا وهلعا . إذا الأمر كله يرتبط بالإيمان والعزيمة . هذا جانب رائع لما يستطيع الدين أن يفعله فى النفوس بذل النفس من أجل الوطن ومن أجل الحق والتفانى فى إنكار الذات والمصالح الشخصية الضيقة . وإذا كان الإيمان يفعل ذلك فى ساحة الوعى فما أجدنا أن نستحضر ذلك فى معركة التقدم العلمى والحضارى . وهى معركة لا تقل أهمية وشراسة عن القتال بالنار . اللحاق بالتقدم العلمى هو جهاد شريف أجره عظيم ونتيجته مصيرية هذا هو ما نحتاج إليه لتحقيق نهضة حقيقية شاملة .